مقدمة في تاريخ بناء الجامع الكبير بمدينة تواوون

من 17 فبراير 1903 إلى 14 سبتمبر 2020

إعداد

سرنج امبي باه

سبط الشيخ الحاج مالك كبي

بمساعدة بابا مختار كبي

عضو اللجنة الإعلامية

اللهم ارزقني مالا كثيرا حلالا أبني به مساجد وجوامع

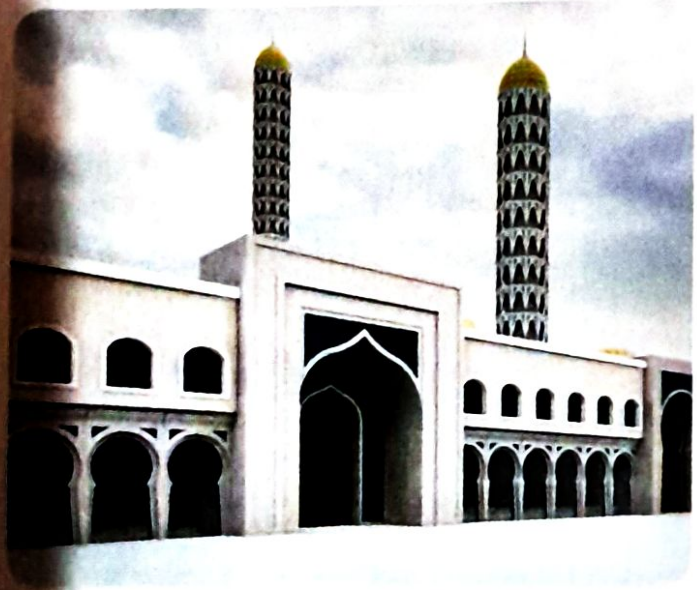

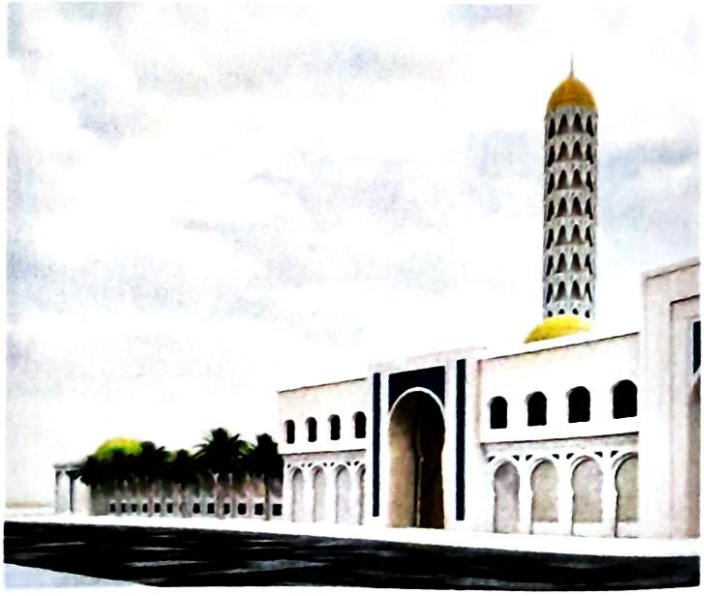

يَا نَجْلَ مَنْصُـــورٍ خَلِيفَةَ مَالِكٍ ** هَذَا أَبُـو بَكْرٍ رَفِيـــــعُ ثَنَاءِ

أَبْشِـــرْ بِوَحْدَةِ أُسْرَةٍ بَلْ سَادَةٍ ** وَتَوَحَّـــــــدَتْ آرَاؤُهُم بِسَوَاءِ

لَمْ يَبْقَ فِيهِمْ مَنْ يُجَادِلُ فِي مَقَا ** مِكَ أَوْ يُمَارِي فِـي مَدَى الْآرَاءِ

بُشْرَى لِمَا قَدْ جَاءَ فِي تَارِيخِكُمْ ** إِتْمَامُ جَامِعِ مَالِكِ الْكُـــرَمَاءِ

فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ خُلِّدَ ذِكْرُكُمْ ** فِـــي قَائِمِ الْأَعْـلَامِ وَالْعُظَمَاءِ

فَاهْنَأْ بِقَصْدِكَ يَا سَمِيَّ فَعَهْدُكُمْ ** عَهْـــدٌ لِتَحْقِيـــقِ مُنَى الْآبَاءِ

مقدمة في تاريخ بناء الجامع الكبير بمدينة تواوون من 17 فبراير 1903 إلى 14 سبتمبر 2020

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمان الرحيم الحمد لله الذي نبه الإنسان بنور العقل والعلم من غفلة الكرى، كي يستطيع تحمل الأمانة الكبرى، والصلاة والسلام على سيد الورى محمد الذي أتى وسرى، وعلى آله وأصحابه أولي المقامات دنيا وأخرى، وبعد:

إن الأسرة بل الأمة التي لا تعني بتراثها العلمي والثقافي، ولا تهتم به ولا تسجله ولا تشرحه ولا تحفظه، إنما هي أسرة لا حاضر لها ولا مستقبل.

وإن الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس، وهذه الخيرية منة من الله سبحانه وتعالى، ومنحة منه لها، نَمَا لِمَا يقومون به من حمل رسالة دين الإسلام وإحياء تراثه، والمجاهدة في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، حتى يكون الدين كله لله سبحانه، فصاروا قادة للأمم، بعد أن كانوا رعاة للغنم، ومعالم للهدى، ومصابيح في الدجى، وأمنة للأمة من الفتنة والردى.

ولله الحمد، لقد حفظ مولانا سبحانه وتعالى لأسرتنا الدينية التجانية المالكية تراثها مسجلا مكتوبا محيا منذ مطلعها في هذه الربوع، التراث الذي توالت بركاته، وسرت نفحاته على هذه البقعة المعطاء، وأشاع نوره على هذه الأرجاء المعمورة المباركة، وهبت أنسام خيراته الوافرة، يحملها قدوة العلماء المصلحين المجددين، الشيخ السيد الحاج مالك سي رضي الله عنه، الذي رأى النور في البلاد، فجاء ميلاده معه الخير والنور، وهو يسعى بين يديه كل فضل، فأحيا الله به معالم دينه، وفجر ينابيعه التي كادت تنضب، وجدد به معاقب للهدى والإيمان، ترعرع مجتهدا في طلب العلم حتى صار فيه فحلا لا يبارى، ثم أسس في ظل القيادة الاستعمارية الظالمة مدارس العلم والتربية والتكوين وبنى زوايا وجوامع للمسلمين، فعم الأمن والحرية والاستقرار والسلم، وأحس الناس بالطمأنينة الروحية والسعادة العرفانية.

وهذا كله بالرجوع إلى حياة نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي تجسدت في شخصيته كل فضيلة وحكمة، وهو نبي الإنسانية، اجتمعت فيه الكمالات الباطنة والظاهرة التي لم تجتمع في مخلوق سواه، فما من كامل باطنا وظاهرا إلا وهو الأصل في كماله، بل منه مدده واتصاله.

ومن باب الاعتزاز بهذا التراث العلمي الثقافي المشرق، وفي إطار نشره، والتعريف بمضمونه، وإطلاع الأجيال القادمة على صفحاته اللماعة، لدراسته وأخذ العبرة منه، وصلا للماضي نحو مستقبل أفضل.

ففي هذا الإطار، قام سماحة الخليفة الشيخ أبوبكر سي منصور لإتمام الجامع الكبير بمدينة تواوون الذي أسسه الشيخ السيد الحاج مالك سي رضي الله عنه في ظروف قاسية من الاضطراب والفتن والقلاقل، وعدم الاستقرار السياسي والاجتماعي، وانعدام روح يل في صحن العادة على طاولة التقليد.

وبالرجوع إلى التاريخ، بعد أدائه لفريضة الحج 1888 1889توجه الشيخ الحاج مالك رضي الله عنه إلى المدينة المنورة لزيارة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، واستنشاق نسيم وشم رائحة روضته الجميلة، تضيء بها الأرواح.

وبعد زيارته، كان يحب مجاورة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولكن ناصحه عالم من علماء المدينة نصيحة ما بعدها إلا الرجوع، ولذلك رجع مع تاج " الحاج "، مطمئن القلب والروح، بعد أن دعا الله سبحانه وتعالى أن:

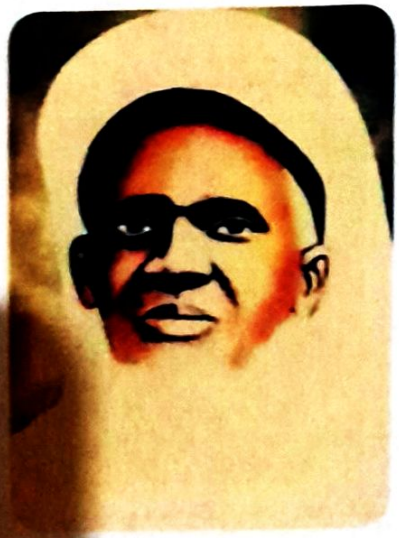

- ✓ يرزقه مالا يبني به مساجد وزوايا.
- ✓ يمنحه أراضي فسيحة يعتمد عليها للزراعة.
- ✓ يحفظ الله له مزاياه من المقامات إلى يوم القيامة، فيصبها في ميزان حسناته.
- ✓ يكون أولاده وأتباعه إخوانا في الله.
- ✓ يحمي الدين وعلماءه من الرجال المستعمرين الفرنسيين.

ولا شك أن المفروض على الدعاة إلى الله تعالى أن يكونوا من أطوع الناس لله تعالى، وأسرعهم مبادرة إلى تطبيق أحكامه، وأن حلّ أمور حلّ الدين ينبغي الوقوف فيها عند الشرع والسنة، والإسلام دين لا يعرف الرهبانية ولا الكهنوتية، بل الاعتصام بحبله من سماته. وكانت هذه الجوامع والزوايا من أقوى الوسائل للوصول إلى أهداف دعوته رضي الله عنه.

انتقل الشيخ الحاج مالك رضي الله عنه من "جَارْدِ" حيث أقام فيها من 1890م إلى 1895م، إلى" تِوَاوُونْ" - على اختلاف بين المؤرخين - سنة 1894م أو 1897م، بسبب تفسير القرآن لإخوان مسلمين كانوا في حاجة إليه بيد أن هناك أسبابا أخرى أسرعت انتقاله إليها، نسكت عنها لضيق الوقت.

وكان رضي الله عنه يسكن داخل المدينة لما فيها من المصلحة، لأنها لا يخلو فيها الإنسان من الخدمة، ولا من أداء واجبه نحو الإنسانية والمجتمع.

ثم توجه بعزم بعد إقامته فيها نهائيا سنة 1902م إلى تأسيس "جامع" بإعانة أتباعه وأحبته كالحاج جُكِيلْ جَوْ والحاج مَجَمَ جوب وشريف مولاي. فطلب رضي الله عنه من الحكومة إباحة فأباحت له المشروع الجامعي في سنة 1903 بالضبط 17 فبراير، بقرار الحكومة الاستعمارية رقمه 72، فشرع في العمل، ثم بعد مرور سنة، دشنه في سنة 1904، وصلى بالمسلمين إماما وقرأ في هذه الصلاة التاريخية سورة يس، وهي مقسومة بين الركعتين. وبعد عيّن رضي الله عنه السيد آتُمَانْ انجَايْ إماما راتبا (1946 ـ 1904). هذه السنة 1904 سنة تاريخية في الأسرة:

- ولد فيها الحاج عبد العزيز سي الدباغ رضي الله عنه.
- نال فيها الشيخ الحاج مالك سي رضي الله عنه إباحة لتأسيس مدرسة.
- أُجْدِيت عليه مزرعةُ جَكْسَاوْ.

وسرعان ما ظل هذا "الجامع" في هذه الأرجاء المعمورة الهادئة مؤسسة علمية، تعمل على جلب الناس بالأوراد والأذكار، وتقوم بالحفاظ على المقومات الروحية لأتباعها، بل أسرع الشيخ الحاج مالك رضي الله عنه إلى إخراجها من نطاق الجامع المحدود إلى المجال الاجتماعي والثقافي والعلمي والإرشادي، إذ لم يزل يلعب عدة أدوار ووظائف في المجتمع السنغالي.

مقدمة في تاريخ بناء الجامع الكبير بمدينة تواوون من 17 فبراير 1903 إلى 14 سبتمبر 2020

وبعد انتقال روحه الطاهرة إلى الملإ الأعلى، تولى الخلافة ابنه الكبير الشيخ الخليفة السيد أبوبكر سي رضي الله عنهما، فقام بساق الجد في سنة 1940 لتجديده وإصلاحه، وكلف أخاه الصغير الشيخ محمدا المنصور سي مالك بهذا العمل الجاد الجماعي وساعده فيه أخواه الشيخ عبد العزيز سي الدباغ والشيخ محمد الحبيب سي والحاج جرن سعيد نور تال الذي كان المكلف بشؤون أسرة الشيخ الحاج مالك رضي الله عنهم.

وبعد مدة، بالضبط 6 سبتمبر 1946 لبّى الإمام الراتب السيد آتمان انجاي نداء ربه، فعيّن الشيخ الخليفة إماما جديدا باسم الحاج بَابَكَرْ انجَايْ.

وهكذا مضت حياة الشيخ الخليفة إلى أن أتاه اليقين في سنة 1957م، فتولى الخلافة أخوه الصغير الشيخ الحاج عبد العزيز سي الدباغ رضي عنهما.

كان الخليفة الجديد مصلحا ومجددا بكل معنى الكلمتين، وبعد سكون وهدوء الظروف القاسية التابعة لتوليته على الخلافة (وفاة أخويه في نفس أسبوع)، قد شرع فورا بإعادة بناء كافة زوايا وجوامع والده رضي الله عنهم أجمعين، ويرى أن مدينة تواوون تستحق أن يبنى في بقعتها المباركة جامعا كبيرا جديدا نظرا لمكانتها ودورها الذي لا تزال تلعبه في دين الإسلام.

ففي هذا الصدد، وجه رضي الله عنه دعوة إلى سائر المسلمين لوضع الحجر الأول لهذا الجامع الكبير في سنة 1969. ورأى تلك الدعوة حضور كثير من المقدمين والعلماء والأحبة من أمثال الشيخ جرن سعيد النور تال والشيخ محمد الهادي طوري والشيخ امبكي عَيْدي فاتمهْ والحاج جِيلِ امبي.

وبعد مدة، وجه الخليفة دعوة جديدة في سنة 1976 لابتداء العمل، وقبل كل شيء، كوّن لجنة وعيّن أخاه الصغير الشيخ محمدا الحبيب سي كرئيس لتلك اللجنة التابعة لبناء الجامع الكبير الجديد، وساعده في ذلك العمل أبناء الأسرة وأحبتها من أمثال الشيخ محمد المصطفى سي جميل والسيد محمد المنصور سي والسيد الشيخ أحمد التجاني سي والسيد عبد العزيز سي الأمين والسيد أبي بكر سي والشيخ الحاج مالك سي الدباغ.

وعيّن الخليفة الحاج عبد العزيز سي الدباغ في نفس السنة السيد الشيخ انغُومْ كالمهندس الذي يقود أعمال المشروع الجديد بجانب الأول الذي كانت حجومه:

- ✓ طولا: 15.90م
- ✓ عرضا: 11م
- ✓ سموّا 3.70م
- ✓ ثخانة 50 س

وكان مبنيا بالطين والماء والقرميد والعمد من الحطب، تلك المواد السائدة في ذلك العصر. وفي سنة 1977، عرض السيد المهندس مع زميله مدير المشروع منصور كَيْ مجسمة الجامع الكبير الجديد التي قد استوفت جميع الضوابط والمعايير الهندسية المعمارية الحديثة. ففي تاريخ 8 يناير 1979 بدأت الأعمال.

مقدمة في تاريخ بناء الجامع الكبير بمدينة تواوون من 17 فبراير 1903 إلى 14 سبتمبر 2020

توقفت الأعمال حينا لبعض مشاكل تقنية لأن الهيكل كله مبني بالإسمنت المسلح، ليس

فيه تراب. وفي سنة 1996 وجه الحاج عبد العزيز سي الدباغ دعوة جديدة لإعادتها. كوّن الخليفة لجنة جديدة واختار الشيخ عبد العزيز سي الأمين رئيسا لها. وصاحبه في هذه المأمورية إخوانه في الدم والعقيدة من أمثال السيد محمد المنصور سي والسيد أبي بكر سي والشيخ الحاج مالك سي الدباغ والسيد محمد الأمين جوب والسيد روحان امبي والمهندس السيد الشيخ انغوم ومدير المشروع السيد منصور كي.

ولما رأى الخليفة الدباغ أن الإمام الحاج بابكر انجاي كان طاعنا في السن، عيّن في سنة 1987 الشيخَ أحمد التجاني تال إماما نائبا ليصاحبه.

وفي سنة 2005 ترك الإمام الراتب وظيفة الإمامة، فصار النائبُ إماما راتبا. ثم بعد سنة يعني 2006 لبى الإمام الحاج بابكر انجاي رضي الله عنه نداء ربه بعد أن صلى بالمسلمين إماما مدة 59 سنة في هذا الجامع الكبير.

وفي نفس السنة عين الخليفة الحالي الشيخ محمدا المنصور انجاي - رحمه الله - الذي كان إماما في زاوية الشيخ الحاج مالك سي رضي الله عنه نائبا لإمام تَالْ. وكانا يتعاقبان على منبر الجامع.

وبعد وفاة الشيخ محمد المنصور انجاي 14 يناير 2015، عيّن الشيخ أبوبكر سي منصور في 7 أغسطس 2015 الشيخ محمدا الأمين انجانغ نائبا لإمام تَالْ.

مقدمة في تاريخ بناء الجامع الكبير بمدينة تواون من 17 فبراير 1903 إلى 14 سبتمبر 2020

منذ تدشينه، سجل هذا الجامع الكبير الأصيل التاريخي عددا من الأئمة الذين قضوا حياتهم فيه من أمثال:

- ✓ الحاج مور امبكي
- ✓ السيد أحمد انجانغ فاط
- ✓ الحاج البشير جوب
- ✓ الحاج امبكي سي
- ✓ الشيخ شيبة فال
- ✓ الشيخ علي فال
- ✓ الشيخ محمد الأمين كبي
- ✓ الحاج مَبِيبْ سُغُو
- ✓ الحاج موسى انجانغ
- ✓ الحاج سَيَرْ امبي
- ✓ الحاج دِمْبَ انجاي وغيرهم.

هكذا مضت الأيام والشهور والسنوات حتى وصلت الخلافة إلى أيدي الأبناء ابتداء من الشيخ محمد المنصور سي إلى الشيخ عبد العزيز سي الأمين مرورا بالسيد الشيخ أحمد التجاني سي، فلعب كل واحد منهم دورا مهما جدا بين حسن النية والتجديد والإصلاح.

وإن كان الفضل للجد وأولاده رضي الله عنهم في تأسيس الزوايا والجوامع، نعتقد نحن أن للحفدة حظا كبيرا في هذا العمل. فجزاهم الله خيرا وجعل جنة الفردوس مسكنهم.

مقدمة في تاريخ بناء الجامع الكبير بمدينة تواوون من 17 فبراير 1903 إلى 14 سبتمبر 2020

نظرا لشخصية الشيخ الحاج مالك رضي الله عنه ومواقفه وتضحياته في ترسيخ دعائم دين الإسلام ونظرا أيضا لمكانة مدينة تواوون في قلوب المسلمين والأخص في أرواح التجانيين الذين لم يزالوا يتساءلون في مصير ومستقبل الجامع الكبير بمدينة تواوون.

كأن هذه الشكاوى التي لا تزال تتردد في أفواههم قد وصلت إلى أذني الخليفة السيد أبي بكر سي الذي ورث سر الخلافة بعد وفاة السيد عبد العزيز سي الأمين 22 سبتمبر 2017.

وفي مجرى الحلقات العلمية والثقافية المباركة التي تنعقد خلال الليالي العشر التي تقرأ فيها البردة بزاوية الشيخ الحاج مالك سي رضي الله عنه تمهيدا وتوطئة بحلول الليلة الثانية عشر من شهر ربيع الأول، شهر المولد النبوي الشريف، الموافق 9 نوفمبر 2019، فاجأ الخليفة العام للطريقة التجانية السيد أبوبكر سي منصور جميع المسلمين بخبر سار مفرح، أنه أعلن نيته الغالية، ألا وهي متابعة أعمال الإنهاء للجامع الكبير بمدينة تواوون، لأن هناك ما يدفعه إلى التعلق بالرجاء، قد جاءت فرصته من السقي.

بالتالي، كوّن الخليفة لجنة جديدة تتابع الأعمال وسماها بـ : جماعة النور السنية، وعيّن رئيسا لها، اسمُه السيد محمد المختار سيسي.

هذه اللجنة الجديدة تنقسم إلى ثلاث فرق:

- ✓ فرقة المال / السيد فَامَرَ إبراهيم سِلَّ والسيد عثمان سي حبيب
- ✓ فرقة التقنية / السيد بُوكَرْ انجاي والسيد علي جَاكْ وعبد العزيز كي ومَوْدُ مَالِكْ فَايْ
- ✓ فرقة الإعلام / السيد عبد العزيز امبي والسيد مَامْ أَلْفَاهِمَ يُرُو سي والسيد مختار كبي والسيد أبوبكر لوه

لكي يكون العمل في غاية العدل والإنصاف عيّن الخليفة لكل فرقة عضوا من أعضاء الأسرة ليصاحبها في أعمالها، كما عيّن أيضا الشيخ محمدا المنصور سي الدباغ كالمنسق العام لجماعة النور السنية.

وعلى ذلك، في يوم 14 سبتمبر 2020 بمناسبة ذكرى وفاة الشيخ الحاج عبد العزيز سي وبعد مشاورة جميع حفدة وحفيدات الشيخ الحاج مالك سي رضي الله عنه، وعلى راسهم فضيله الشيخ الحاج مالك سي الدباغ، قد اختار الخليفة ذلك اليوم ليذيع أعمال الإنهاء للجامع الكبير، لما تمثل تلك الذكرى في تاريخ هذه الأسرة السنية الطيبة.

ففي نفس اليوم ليلا، نظمت الفرقة الإعلامية منبرا خاصا منبثا مباشرا في كافة التليفزيونات والشبكات الاجتماعية لتحصيل تبرعات. وغير أعضاء الفرقة، كان على المنبر الدكتور عبد العزيز كبي والدكتور محمد البشير انغوم والسيد محمد المنصور جميل والسيد مولاي سي

وفي هذه الفرصة، جدد المنسق العام فضيلة الشيخ محمد المنصور سي الدباغ باسم الخليفة الدعوة إلى كافة المسلمين والمسلمات في داخل البلاد وخارجها ليتبرعوا ويسهموا إسهاما في هذه الأعمال الخيرية. فجزى الله خيرا كل إنسان أسهم فيها، مهما كان النوع.

بناء على ما سبق، هذه المقدمة القصيرة تعلّة لسرد المحاور الأربع لبرنامجه رضي الله عنه التعليمي والتوعي ودور زاويته بمدينة تواوون فيه أي في ذلك البرنامج.

وبعد رجوعه من حجه انصرف الشيخ الحاج مالك سي رضي الله عنه إلى العاصمة "سِينْ لويس"، حيث تعلم فيها عادات المدينة، وعانى تباريح الحياة المدنية وحقائقها، ثم انصرف إلى قرية "كرباسن" هناك أخذ رضي الله عنه يفكّر في استراتيجية أخرى مقلعا عن كل شك وتردد فيما سيتخذه نهائيا، ثم جنح عن "كرباسن" إلى قرية "جَارْدِ"، وقضى فيها سبعة أعوام 1895م - 1902م.

ولما وصل الشيخ إلى قرية "جارد" وجد بيئتها حية، توافق مع ما كان ينتظره، بل ما كان يدعو الله به عند الكعبة الحرام، وفهم أنه لم يبق له إلا تأسيس وتحقيق برنامجه التعليمي المتمحور على أربعة ميادين: العلم والتربية والإخاء والعمل.

وفي هذا الصدد، بدأ الشيخ رضي الله عنه ببناء بيته ومسجده، ثم حُدّد له مزرعة فسيحة، فأخذ مسؤوليته، وقام بساق الجد في تجديد هذا الدين، وإصلاح ما أفسده أهل الأهواء والبدع من أمور المسلمين وحياتهم، وأرسى هذه الدعائم على المنهج الواضح من العلم والتربية والإخاء والعمل.

✓ العلم:

هذه الكلمة العامة الشاملة (العلم) التي تعبر بمفهومها عن هذه المعاني: التربية، التكوين، الإعلام، المواصلة، التزكية، التصفية، وهذا على ضوء تعاليم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم التي هي مرآة عملية صادقة للقرآن الكريم.

وكان يتولى تربية الطلبة وتعليمهم وتصفيتهم وترقيتهم، عبر حلقات الذكر والدراسة الدائمة التهيج من فترة الصباح إلى فترة المساء، يراقب سلوك التلاميذ وتصرفاتهم اليومية، ومعاملاتهم فيما بينهم أو مع غيرهم؛ لإحياء روح الأخوة الإيمانية، اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم القائل:

"إنما بعثت معلما"، نعم العلم هو أول آية في الكتاب تلقاها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم صاحب الدعوة الإسلامية، كانت أمرا بالقراءة وتنويها بعلم الله وعلم الإنسان.

✓ التربية:

ولما تنبه الشيخ رضي الله عنه بأن الرجوع إلى التربية الاصطلاحية أمر مستحيل، تنحى عنها إلى التربية بالهمة والحال، ثم وجه الأتباع إليها، وكان يرعاهم ويتفقدهم في كل حالة من الحالات، فلا يقع بصره على شيء جانب الصواب، إلا ونبّه عليه، ووجّه النصح إلى التنحي عنه، ولا طرق سمعه على مشين إلا وبادر بالإنكار عليه، زيادة إلى تشغُّفه إياهم بالعبادة، وتشوُّقه لهم إلى الثواب والأجر.

لم يزل يدعوهم إلى تحرير ضمائرهم والانطلاق من قيود الشهوات النفسية والرغبات الدنيوية العالكة الهالكة، وذلك لا يعني كبت الدوافع الحيوية وإزهاق الطاقات الحية، إنما هو دعوة أن يملك المريد قيادة نفسه، فلا يكون عبدا مملوكا لشهوته ولا حيوانا مدفوعا لنزواته.

قد نجح نجاحا متقنا الاتفاق بين علم الشريعة والحقيقة الذي عجز الكثير أن يزوجهما. مزج بين العلمين في مسلك واحد فريد حتى لا تكاد نجد فرجة بينهما أو قل ما نجده في مجال التصوف. لأن ذلك فالتصوف الذي نجده عنده رضي الله عنه هو التصوف السني الذي يستقي أسسه ووثائقه من المحتويات القرآنية والمآثر المحمدية حيث يكون المريد يأتمر بتطبيق أوامر الله ويقف عند حدوده، لا غير. إذا فأصول تربيته الصوفية تبنى على أسس ثلاثة:

- كتاب الله
- السنة السنية
- تطبيق هذين بالهمة والحال.

وكان رضي الله عنه يستدلى في جميع حركاته وسكناته بهذه الأصول مقتديا بقوله تعالى: " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة. " يمكننا أن نلخص من هاتين الآيتين أن

الإنسان لا يستطيع أن يكون صوفيا مرشدا إلا إذا كان عالما شرعيا "الشريعة" وذا حكمة وموعظة "الحقيقة" قال الشيخ عبد المجيد الشرنوبي: " فاعلم أنه لا يصلح للإرشاد إلا من كان على علم يهدي به العباد، فإذا مرض بشبهة داواه أو تخير في مسألة من مسائل الفقه أفتاه مع قناعة تورثه الغنى عن الناس".

قد تجسد كل ذلك في الشيخ الحاج مالك سي رضي الله، وكان عالما مرشدا حكيما متضلعا ومتبحرا بعلوم الشريعة الظاهرة ومكلفا نفسه عناء الإصلاح الباطني والتقرب إلى الله مما افترض عليه من الفرائض والنوافل، حتى يجعله ذلك عبدا ربانيا خاضعا له بالكلية، وحبيبا له حتى صار سمعه وبصره ويده ورجله وإرادة جوارحه كلها إرادة الله، فأنار قلبه بنور الحقيقة في آن واحد يعني بتزويجها مع الشريعة. لذلك صارت مدرسته متميزة بطابع مدى التوافق بين الشريعة والحقية. فهذه المحبوبة هي نتيجة تنويع أعماله في الشريعة. ولا شك أن ذلك التزويج ليس بسهلة ولا برخصة بل يطلب بالكثير تضحية الشهوات النفسية ومستلذاتها وخرافاتها الضالة المضلة.

✓ الإخاء:

أكّد الشيخ الحاج مالك سي رضي الله عنه في تعليماته على ضرورة اجتماع الناس وعيشهم داخل جماعات، وعلى تفاعل المريدين فيما بينهم، وأكّد أيضا على ضرورة وجود قائد ينظّمهم والذي تخضع له الجماعة، وهذا ما يبرّر وجود مقدّم في كلّ منطقة من مناطق السنغال وخارجها لقيادة المريدين وتوجيههم.

كما اهتم بتكوين المجتمع وفهم ديناميته وكان يرى أنّ نشوء المجتمع جاء نتيجة لعجز الفرد وعدم قدرته على العيش بمفرده. ومن هنا تتجلى لدينا مفهوم حقيقة التفاعل الاجتماعي عنده رضي الله عنه بين الناس وخاصّة المريدين فيما بينهم. وهذا المفهوم لم يزل بناء النشء الجديد لتجديد حال المواطنين والمواطنات بإيقاظ هممهم. وهذا كله نصائح الشيخ السيّد أحمد التجاني رضي الله عنه التي توجهها إلى مريديه، نصائح جسّدها هو بنفسه في نظم وسماه بـ " نعمة العافي الجاني"، حيث أوصى بالمودّة والرحمة والإخاء وأن يكون المريد كثير النفع للعباد، رفيقا بالحاضر والبادي، ويجعل الناس كلّهم أبناءه وإخوانه.

✓ العمل:

وعلى نفس المنوال، كان الشيخ يدعو الأتباع إلى العمل لكسب الحلال، مع ضرب أمثلة حية في اتخاذ الحقول الزراعية في قرية "جارد" وغيرها، وكان يؤمن إيمانا قويا بمبدإ الاعتماد على عرق الجبين، وممارسة الحرف والمهن لكسب القوت، اقتداء بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله يحب المؤمن المحترف". قد ربى جميع المريدين على ممارسة الحرفة، لأنها تمنعهم عن أي استرقاق أو استعباد والإنجاز بالرقيق بجميع صوره.

وكان عدد الوافدين يزيد بل يتضاعف مع تقادم الزمن، من الأماكن البعيدة أو المجاورة لقريته، وقد أغرى ذلك حاسديه الذين كانوا في العاصمة، فسعوا لوشايته إلى السلطات كالعادة.

الشيخ الحاج مالك سي رضي الله عنه الذي لاح نجمه في تلك القرية منذ سبعة أعوام، وتخرّجت خلالها على يديه مئات من العلماء العاملين، والمربين الواصلين، وتجمّعت جميع الوسائل على يديه لتبليغ رسالته، عزم على مغادرة الأهل مرة أخرى إلى "تِوَاوُونْ ".

وكان الشيخ رضي الله يسكن داخل المدينة لما فيها من المصلحة، لأنها لا يخلو فيها الإنسان من الخدمة، ولا من أداء واجبه نحو الإنسانية والمجتمع.

✓ دور الزاوية التواونية

ثم توجه بعزم بعد إقامته فيها نهائيا سنة 1902م إلى تأسيس زاويته بإعانة أتباعه، الزاوية التي ظلت مؤسسة علمية، تعمل على جلب الناس بالأوراد والأذكار، وتقوم بالحفاظ على المقومات الروحية لأتباعها، بل أسرع إلى إخراجها من نطاق مؤسسة الزاوية المحدودة إلى المجال الاجتماعي والثقافي والعلمي الواسع، إذ لم تزل تلعب عدة أدوار ووظائف داخل المجتمع السنغالي.

مكث رضي الله عنه في هذه الزاوية بين أصحابه مدة تسع سنين، يصلي فيها الصلوات الخمس دون تخلف، إلا يوما كان يطالع في مكتبة داره مع الإخوان، ففاتهم الوقت دون انتباه منهم.

وكان عدد الوافدين عليه من الآفاق البعيدة والقريبة يتزايد، كما تضاعف عدد المريدين المتلقين حوله، فاعتبر زواياه المؤسسة التعليمية المجهزة لتخريج رجال كثيرين، فكان يعقد جلساته التعليمية فيها، أو في مسجده، أو في فناء داره، ويقضي أوقاته بين المذاكرة، والإفتاء، والذكر، والوعظ، وأكثر مواضيعها كانت تدور حول الشريعة والحقيقة؛ لما فيها من كثرة المزاج عند أهل الأهواء.

وكان للشيخ ولوع خاص بسيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فكان همُّه الأساس حملهم على طاعة هذا الأسوة الحسنة، ولهذا بادر إلى دعوة الناس بالمشاركة في إحياء ذكرى مولده صلى الله عليه وسلم في هذه الأراضي، وذلك حين نادى قائلا:

ألا عظموا ليل الولادة حسبة *** إذا لم يكن نحو الحرام عدول

إذا كانت " جارد " هي المنطلق التكويني للشيخ، حيث كوّن فيها النخبة، أصبحت "تواوون" من جانب آخر المدرسة التطبيقية لتعاليمه العلمية والروحية والعملية، والمركز لنشرها إلى جميع مساحات أرض البلاد.

فما لبث الشيخ رضي الله عنه فيها مدة، إلا ارتفع ذكره، وبزغ نجمه، وكثر أتباعه، وأولع به تلاميذه، وسوّده قومه، وخاصة أئمة المدينة.

ولقد سارت حياته فيها هادئة وادعة. وقسم فيها يومه إلى شطرين، الأول يكون فيه بين مدرسته وتلامذته، والآخر بين مسجده وقراءة وظائفه وأذكاره.

وكان والدا، أستاذا، شيخا، إماما لأتباعه وتلاميذه، إذ تحقق فيه حق الأبوة للرابطة القلبية، والأستاذية بالإفادة العلمية، والشيخية بالتربية الروحية، والإمامية بحكم السياسة العامة للدعوة الإسلامية.

وأهمّ الأمور التي ساعدته في إنجاز وإنجاح إستراتيجيته في القيادية هي:

- وضوح قيادته ونصاعتها
- الحرص على نشر السلام
- الامتزاج الروحي والعاطفي
- قيادة الأتباع على نور العلم المحض

مقدمة في تاريخ بناء الجامع الكبير بمدينة تواوون من 17 فبراير

وقد ورثت هذه القيم القيادية العليا جميعُ الشخصيات والقادة الذين تصدروا على يديه المباركتين.

وهكذا مضت حياته إلى أن أتاه اليقين في سنة 1922م، فغُسِل، ثم كفن، ثم دفن أمام زاويته.

ولقد أجمع جميع الذين جاوروه أو عاصروه، سواء من أعداءه أو من أهل وطنه ودينه على سمو روحه، وطهارة قلبه، وكرم سجاياه، وبهجة سيرته، وغزارة علمه وجوده، وقد أثنوا عليه، وأشادوا بعظم جهوده في مختلف مجالات العلم، وشتى فنونه.

وكان شيخا عالما عاملا متواضعا زاهدا قانعا عفيفا صبورا حمولا كريما مشهورا بحسن العشرة، وسلامة الصدر، والصلاح، والعبادة، وتوقير العلماء السنيين الصالحين وإجلالهم.

على ضوء ما سبق، يمكن لنا أن نقول إن الشيخ السيد الحاج مالك سي رضي الله عنه شخصية فريدة من نوعها، وعجيبة في شأنها ومعاملاتها، يجمع بين العلم، والرأفة، ورقة القلب، والحنان على الناس، إلى جانب الحزم والشدة في المواقف التي تحتاج إلى ذلك، وكان راجح العقل، فطنا، واعيا، مدركا لما يدور من حوله من الأحداث، وكيفية التصرف معها، وردة الفعل المناسبة لها، فهو بحق المجدد الموعود لهذه الأمة السنغالية، وهذا ظاهر من مواقفه الجريئة أثناء فترة جهاده السلمي، فجزاهم الله تعالى عن الدين والطريقة والأسرة والأخوة خيرا.

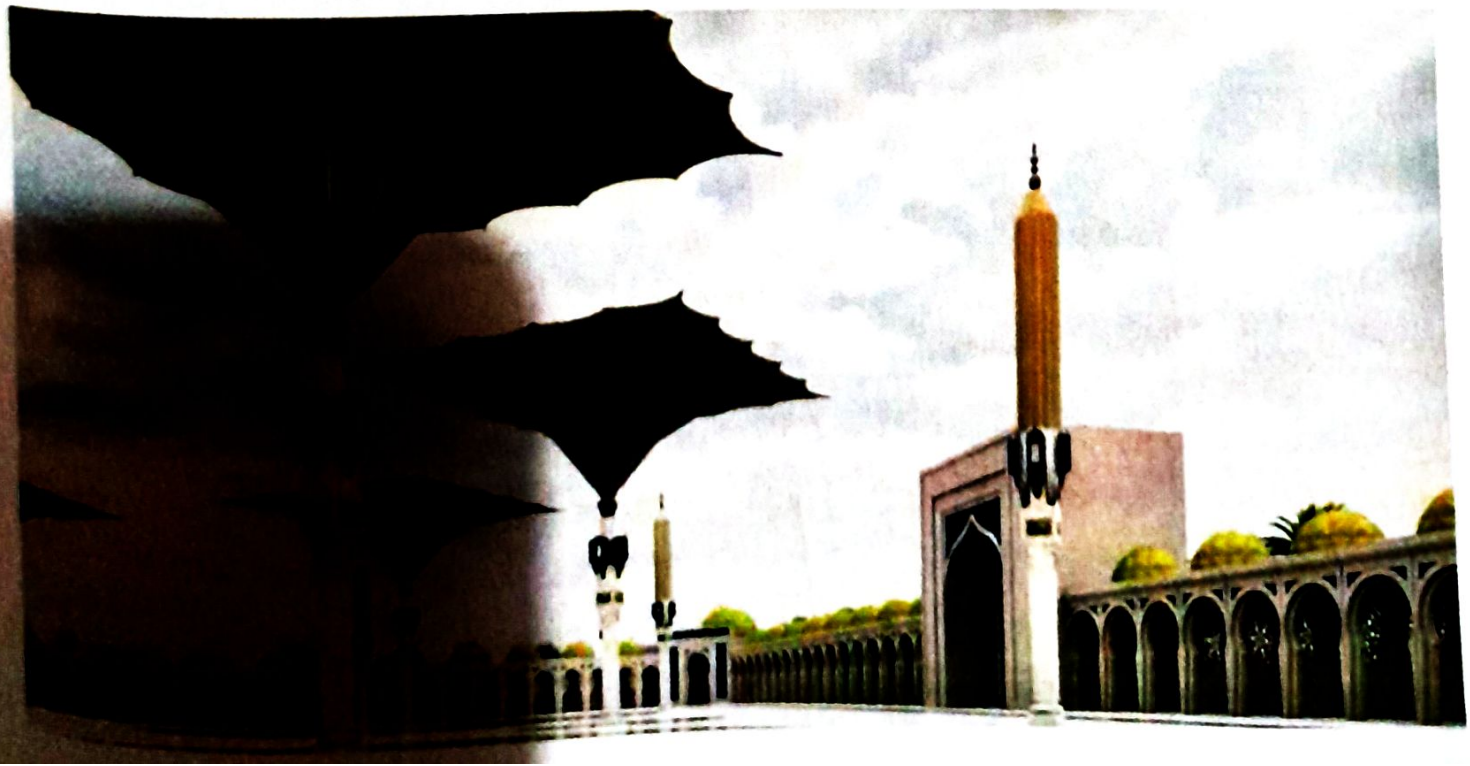

انتهى يوم الاثنين 23 نوفمبر 2020

رقم الهاتف: 42 03 517 77

Mbayeba399@gmail.com